جدل فكري في بلاط بيزنطة

حول آية الصمد في وثيقة نادرة

د.عبدالله سالم الزليتني•

المستخلص

يتناول هذا البحث صورة من صور التنافس العقائدي والفكري، الذي صبغ العلاقات الإسلامية البيزنطية زمن العصور الوسطى، إلى جانب التنافس السياسي والحربي، وقد اهتم المؤرخون البيزنطيون بإبراز نماذج عديدة من هذا التنافس، حفظتها كتبهم ومذكراتهم، ومن بينها هذه الوثيقة النادرة التي دوَّنها المؤرخ البيزنطي **نيكيتاس خونياتس**، حيث تناولت جدلا ونقاشا حادا حول آية الصمد في حضور الإمبراطور البيزنطي **مانويل كومنينوس**، وما آل إليه هذا الخلاف، ثم محاولة التوفيق بين رأي رجال الكنيسة ورأي الإمبراطور وحاشيته.

الكلمات المفتاحية: البيزنطيون – الله الصمد – نيكيتاس.

المقالة

لعل أول لقاء إسلامي بيزنطي –مما حفظته المصادر التاريخية– ذلك الذي دوَّنه **الطبري** في تاريخه[1]، حين أشار إلى وفود حُمِّلت برسائل من **محمّد** رسول **الله –صلّى الله عليه وسلّم–** إلى ملوك العالم وأمرائه حوالي 7هـ –628 م، يدعوهم إلى الإسلام، وكان **هرقل** الإمبراطور البيزنطي (610–641 م) من بين من استقبل هذه الوفود، وقد ردّ **هرقل** ردا طيِّبا، وتفيض المصادر العربية بقصص وروايات عن اتصالات ولقاءات متعددة جرت بين بيزنطة والمسلمين، في هذه الفترة المبكرة من تشكّل الدولة الإسلامية، بل إن **هرقل** نفسه كان محل إشادة وتمجيد في هذه المصادر[2].

• عضو هيأة التدريس بقسم التاريخ كلية الآداب. جامعة بنغازي.

1– أبو جعفر جرير الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج2 ، ط2 ، القاهرة ، دار المعارف ص649

2– انظر في ذلك الدراسة المستفيضة عن هذه الصلات في: Nadia Maria El cheikh , Byzantium Viewed By The Arabs , Harvard University Press ,2004

غير أن بعض الباحثين شكّكوا في مصداقية هذه الروايات وفي حدوث هذه الاتصالات، إذ لم يكن خبر هذا الدين قد تناهى أصلا إلى **هرقل**[1].

وعلى أيّ حال لم تمض سوى بضع سنوات حتى تبددت ضبابية الموقف، ووضحت الصورة، بعد أن أخذ اللقاء الإسلامي البيزنطي شكل المواجهة المسلحة من خلال حروب الشام، التي توِّجت بخروج البيزنطيين من بلاد الشام نهائيا، وانتقالها إلى حوزة الدولة الإسلامية.

إن دخول العرب إلى بلاد الشام، واتصالهم بثقافات متعددة هناك، ومجاورتهم للبيزنطيين قد فتح آفاقا جديدة للثقافة الإسلامية، وأتاح للطرف الآخر أن يتعرف على الإسلام، وعلى أفكاره وعقائده، وقد حمل لواء هذه المعرفة نصارى من أصول عربية، لهم الفضل في نقل بعض المعارف الإسلامية إلى البيزنطيين، كان من أشهرهم **منصور بن سرجون** المعروف **بـــيوحنا الدمشقي،** والمولود في دمشق سنة 676 م، أي بعد ظهور الإسلام بحوالي 65 سنة، وتذكر الروايات المتواترة أنه خدم هو وأبوه في بلاط الأمويين في دمشق[2]، وأنه كتب مجموعة من الرسائل في موضوعات لاهوتية وفلسفية، وعلى الرغم من أنّ الهالة التي أحيطت حول شخصه من أنه ضليع في العربية وصاحب معرفة واسعة بتاريخ العرب والإسلام[3]، إلا أن الواقع يدحض هذا؛ ذلك أن المعني – مع افتراض حسن نيته – بدا أن حظه من العربية التي يفترض أنه يتعامل بها في البلاط الأموي كان قليلا، وجهله التام بعقائد العرب، وإلا كيف راق له أن يفسّر لفظة "الكعبة" على أنه اشتقاق من الكبر والكبار[4]، ودليله في ذلك ارتفاع صوت المسلمين بنداء "**الله** أكبر"[5]، وأن العرب في جاهليتهم عرفوا عبادة نجمة الصباح وعبادة **أفروديتي**[6]، وأن الحجر الأسود الذي يعظِّمه المسلمون إنما هو

1 -Walter E. Kaegi , Heraclius Emperor of Byzantium , Cambridge University Press 2002 . P. 229
Gerrit J. Reinink , Bernard H. Stolte , The reign of Heraclius 610-641 , Peeters , Leuven 2002 , PP. 113-114 كما تناول آخرون هذا الحدث، وشككوا في هذه الاتصالات المبكرة ،
2- Daniel J. Sahas , John of Damascus on Islam , Brill 1972 P. 7
3 -D. Bryan Rhodos , John Damascene in context , Virginia 2009 p..17
4-Sahas , John of Damascus …. P. 87
5 - Ibid.
6-John Meyendorff , Byzantine Views of Islam pp. 118-120 ,
The Relations between Byzantium and Arabs , at Dumbarton Oaks in May 1963 هذا البحث قُدِّم في مؤتمر :

أيضا : Rhodos , John Damascene……. , p.61

رأس **أفروديتي**[1]، كما أخِذ عليه أنه اختلق في ردوده على آيات القرآن عبارات وجملا وسورا لا وجود لها في القرآن، كزعمه وجود سورة سماها ناقة **الله**[2]، ومما يؤكد قصوره في فهم الإسلام – كما يعترف **ساهس Sahas** – استشهاده بالقرآن في مناسبتين فقط[3]، ويجدر بالملاحظة أن يوحنا صنَّف سور القرآن على أنها كتب حتى تلك التي لا تتجاوز السطرين[4]، ويبدو أنه في تحامله على الإسلام، كان مدفوعا بغضبه الشديد من الحركة اللاأيقونية[5] التي ظهرت في القرن الثامن الميلادي، وشعوره أن هذه الحركة متأثرة بتعاليم الإسلام، الأمر الذي دفعه إلى ترك الوظيفة العامة، والخلود إلى أحد الأديرة، والشروع في ردود عاصفة على هذه الحركة، خصَّ الإسلام بجزء من هذه العاصفة في كتاب سماه الهرطقات "**De Haeresbius**"[6].

وكان الإمبراطور **ليو الثالث** 717– 741م قد تبنى الحركة المضادة للأيقونات، وتعددت الروايات في تفسير دوافع الإمبراطور في اتخاذ هذه الخطوة الجريئة، فثمة من يرى أنّ دافعها التأثير الإسلامي واليهودي؛ إذ قيل إنَّ الإمبراطور كان واقعا تحت تأثير موظف عربي كبير، وآخر مشعوذ يهودي في البلاط البيزنطي، ورأى البعض أنها كانت جولة من جولات الصراع بين الكنيستين الشرقية والغربية[7]، وقد وجدت هذه الحركة صدى لها في دمشق؛ إذ بادر الخليفة الأموي الأموي **يزيد بن عبد الملك** (101هـ –720م)—(105هـ –724م)، بإصدار منشورٍ يقضي بمنع كافة الرموز المادية المسيحية، وتحطيم الصلبان والأيقونات[8].

إن هذا الحرج وهذا الشعور بضرورة إدخال إصلاحات في مفهوم العبادة ظل يسيطر بين حين وآخر على فكر بعض الأباطرة البيزنطيين، وإذا كانت الحركة الأيقونية قد توقفت رسميا وفق

1 -Sahas , John of Damascus … p. 88
2 - Ibid. , p. 91
3 -Ibid. , p. 89
4 -Ibid.

5– حركة دينية هدفت إلى التخلص من الأيقونات والصور والتماثيل، وقد بدأت إرهاصاتها في فترة مبكرة من المسيحية، لكنها أخذت الطابع الرسمي مع وصول الأسرة الأيسورية إلى عرش الإمبراطورية البيزنطية سنة 717 م.

6– حقيقة ، أن يوحنا لم ينظر للإسلام على أنه دين جديد ، بل كان ينظر إليه باعتباره هرطقة مسيحية، وأن النبي محمّد خرج بهذه الهرطقة بتأثير الراهب الأريوسي بحيرا ، انظر:

Sahas , John of Damascus ….. P. 68 , 73

7 -Timothy E . Gregory , A History Of Byzantium , Blackwell Publishing 2005 . P. 191
8 -Rhodos , John Damascene …… p. 63

قرارات المجمع المنعقد سنة 843 م، فإن محاولة جديدة جرت بين مارس ومايو سنة 1180م، اتخذت جانبا فكريا، وهدفت إلى تصحيح صفات الذات الإلهية، وأحدثت هزة وصدمة في أوساط رجال الدين وفي أروقة البلاط البيزنطي، وينفرد المؤرخ البيزنطي **نيكيتاس خونياتس Choniates Niketas** بتفاصيل هذا الحدث، وضمَّنه كتابه المعروف بـــــ"مدينة بيزنطة[1]" أو "حوليات **نيكيتاس خونياتس**"، حيث يذكر في سياق كتابه السابع أن الإمبراطور **مانويل كومنينوس Manuel Komnenos** 1143– 1180م، رأى في أخريات أيامه أن المسلمين يلقون صعوبة وعقبة كأداء في تحوّلهم إلى المسيحية؛ بسبب عدم استيعاب مفهوم **الله** وفق المسيحية، الذي يرون فيه صورة مغايرة لما ألفوه، وأن الضرورة تقتضي توحيد المفهوم لكل من المسيحيين والمسلمين، وهذا لن يكون إلا بإعادة النظر في الكتاب الكنسي The Book of Catechism، الذي يحرِّم " إله النبي محمّد "، ذلك الرب، الذي يصفه **محمّد** بأنه " لم يلد ولم يولد " وأنه " الصمد "، وقد اعتبر رجال الدين أن فكرة **الله** الصمد بالمفهوم الذي جاء به القرآن فكرة وثنية، بعد أن حصروه في معنى واحد قديم لديهم holosphyros[2].

وكانت الكنيسة قد بيّنت أن **الله** لا يمكن تعريفه، ولا اسم له؛ لأن الاسم هو من صفات المخلوقات، مع أن المفسرين المسلمين لم يحددوا معنى بعينه **لله** الصمد، وفسروه بمعاني عديدة يندرج تحتها معنى الصمد؛ فهو السيد، وهو المقصود إليه في الحوائج، والمصمت الذي لا جوف له؛ أي لا يدخله شيء ولا يخرج منه، وغير ذلك من الصفات المجازية[3]، وأرسل الإمبراطور إلى كبار رجال الدين وعلى رأسهم البطريرك **ثيودوسيوس بورادوتس Theodosius Boradiotes** 1179–1183م، يدعوهم لحضور اجتماع مخصص لعرض رؤيته بالخصوص، حيث طرح المقترح بمقدمة ذكية، لكنه قبل أن ينتهي من هذه المقدمة فوجئ بالجميع يهزون رؤوسهم رفضا، وبعدم الرغبة في الإنصات إليه؛ لأنّ ذلك ينتقص –في رأيهم– من المجد الحقيقي لله، وعلى الرغم

1 -NiketasChoniates . O city of Byzantium , translated from Greek by, Harry J. Magoulias Wayne State University Press 1984 ,pp. 121-124 وللكتاب ترجمة عربية من عمل كاتب المقال لم تُنشر بعد

2– فسّر نيكيتاس الصمد بالمرادف البيزنطي holosphyros الذي يعني الصلب والشديد.

3 تفسير ابن كثير، ج4 ، بيروت ، دار المعرفة 1969 ، ص566 .

تفسير الكشاف ، لأبي القاسم الزمخشري ، ج4، طهران ، انتشارات أفتاب ، ص298

من أن **نيكيتاس** لم يشر إلى ما إذا كان هو أحد المدعوين للاجتماع ومن شهوده، إلا أنه بدا منحازا لموقف المعارضة، مستخدما أقذع العبارات ضد الإسلام ونبيه[1]، ومتهما الإمبراطور بجهله بحقيقة الصمد holosphyros، وينبغي أن نشير إلى أن الطعن في الأوصاف القرآنية، وغضب هؤلاء المجتمعين، وكذلك **نيكيتاس**، وشدة تحاملهم على المصطلحات القرآنية؛ سببه تلك الترجمة السيئة التي كانت متداولة بين البيزنطيين في تلك الفترة[2]، ومع ذلك مضى الإمبراطور في خطوته الجريئة ونشر كتابه بمساعدة بعض رجال البلاط الذين اتهمهم **نيكيتاس** بالانتهازية[3]؛ لأنهم –في ظنه– يعرفون فكر **محمّد** معرفة جيدة، ومع ذلك ينافقون الإمبراطور، وانطلق وفد إلى مقر البطريركية يتألف من أعضاء من مجلس السناتو وأفراد من طبقة النبلاء، وصفهم **نيكيتاس** بعصابة من الصغار، وتمسّك البطريرك بموقفه، ورفض فكرة **الله** الصمد، وغضب الإمبراطور حينما وصله الرد، وصب جام غضبه على الأساقفة، ووصفهم بالحمقى[4]، وعلى الرغم من هذه المعارضة القوية إلا أن الإمبراطور لم ييأس، وأعد كتابا ثانيا قال عنه **نيكيتاس:** " كان ذا أسلوب مغر وجذاب"[5]، وكان الإمبراطور آنذاك قد بدأت عليه علامات المرض الذي أودى بحياته، فانتقل إلى قصر داماليس في أحد أطراف المدينة المطل على البحر؛ للاستشفاء، ومن هناك استدعى الهيأة الدينية، ولما حضروا اعتذر عن لقائهم، وكلّف أحد رجاله بتسليمهم الكتابين الجديدين؛ للاطلاع عليهما وتوقيعهما، وقد عالج الكتاب الأول مسألة العقيدة محل الخلاف، أما الثاني فعرض مسألة الخلاف مع البطريرك ومجموعة الأساقفة بلغة غير مهذبة على حد وصف **نيكيتاس**، وحَمَل الكتاب في طياته تهديدا ووعيدا للبطريرك وأنصاره، واصفا إياهم بغير العقلانيين، مهددا بتأليف هيأة دينية جديدة،

1– يُشهَد لنيكيتاس أنه كان موضوعيا إلى حد كبير في القضايا التي عالجها في تاريخه، غير أننا نرى وجها آخر لنيكيتاس وصورة مغايرة لما ألفنا حين تعرض للإسلام ورسوله، ويبدو هذا واضحا في آرائه المبثوثة في أنحاء متفرقة من الكتاب، ومن دون شك، فإن ثقافة العصر هي التي أملت عليه وعلى غيره من المؤرخين هذا الموقف .

2-Meyendorff , Byzantine Views of Islam . p. 122,

3 -Niketas , O City Of Byzantium , p. 121

4 -Ibid. , p. 12

5Ibid. ,

ونقل الخلاف إلى **البابا**، وختمه بالقول: " سأكون أحمقا وناكر جميل إذا لم أعد إلى رب الجميع الذي جعلني إمبراطورا، وإذا لم أبذل جهدي لمنع الإله الحقيقي من تعريضه للّعن"[1].

غير أن مستمعي الكتابيْن كانوا أبعد من أن يؤثر فيهم هذا التهديد، بل واجهوا التهديد بنبرة أقوى وأعلى من الرفض، ولم يحتمل رئيس أساقفة تسالونيكي أن يوصف **الله** بالصمد، معتبرا ذلك فبركة شيطانية، وقال: "سيكون عقلي تحت أقدامي، وسأكون غير جدير بهذا الثوب" وأشار إلى العباءة المنسدلة على كتفيه، وتابع حديثه مستخدما عبارات وأوصافا في حق الرب الذي يعبده المسلمون، حتى إنّ باقي رجاله ارتجفوا وهم يسمعون هذه العبارات الغاضبة، وعاد مندوب الإمبراطور مصعوقا مما سمعه، ومن ردود أفعال رجال الدين، وشعر الإمبراطور بالقلق، وأعد دفاعا ماكرا؛ فأعلن أنه صاحب عقيدة مستقيمة، ومن أسرة متدينة، وناشد أن يُحَكَّمَ بينه وبين **يوستاثيوس Eustathius** رئيس أساقفة تسالونيكي، الذي اتهمه بالخروج على العقيدة، ومن ثم ينبغي فرض عقاب عادل على من جدف على أناس مدهونين من الرب، وأمنه على نفسه إذا ما تبيّن أنه يعبد إلها غير الذي يعبده المسيحيون، فسيكون ممتنا إذا ما وُجِّه إلى العقيدة الصحيحة[2].

ثم قَدِم البطريرك وقد أثَّرت فيه عبارات الإمبراطور الحكيمة، صحبة **يوستاثيوس** رئيس أساقفة تسالونيكي، وكظم الإمبراطور غيظه، وصفح عن **يوستاثيوس** عما بدر منه من تشكيك في عقيدته، وقبل كل مبررات دفاعه، ووبخه قائلا: " لتكن رجلا عاقلا، واحفظ لسانك من البذاءة، ولا تكن قليل الحياء"[3].

وفي اجتماع مصغر أُزِيلَ اللبس، ووافق الحاضرون على ما ورد في الكتاب، وأثنوا على محتوياته باعتباره يحقق مطالب العقيدة الصحيحة، ووقعوا عليه، وانفض المجتمعون، وغمرت الأساقفة موجة عارمة من الفرح؛ باعتبار أن معارضتهم قد نجحت في ثني الإمبراطور، والعودة به إلى الطريق المستقيم .

1Ibid. , p. 122
2 -Ibid. , p. 123
3-Ibid

وفي اليوم التالي، دُعِيت الهيأة الدينية إلى مقر البطريركية؛ لإعلان الاتفاق، إلا أن مندوبي الإمبراطور فوجئوا برفض الأساقفة، الذين ادعوا أن الوثيقة المكتوبة ما تزال تحمل بعض العبارات المستهجنة، التي ينبغي إزالتها واستبدالها بأخرى لا تتعارض مع العقيدة الصحيحة بأي حال من الأحوال، واستشاط الإمبراطور غضبا من هذا التقلب والتلون، واتهمهم بأنهم مجرَّدون من أي فكر، وبعد طول انتظار توصلوا إلى حل وسط بأن يوافقوا على إزالة ما يسيء إلى رب **محمّد** والإبقاء على ما سواه، وأعلن الاتفاق، وصادقوا على هذه العقيدة، وانتهى هذا الجدل الفكري.

وعلى أيّ حال، فبالرغم من انتهاء هذه الأزمة الفكرية التي شهدها البلاط البيزنطي وفق ذلك البيان التوافقي، فإن آية الصمد ظلت مثار جدل ونقاش بين رجال الدين والمفكرين في العصور اللاحقة[1]، ذلك أن حصر المعنى في المرادف الإغريقي holosphyros، الذي يعني الصلب –كما يرى **نيكيتاس**– قد ضلّل المترجمين، واعتقدوا أن **الله** في القرآن جسد مادي، وهو بذلك نموذج للآلهة الوثنية[2]، ويعترف المؤرخ **جون وانسبرو John Wansbrough**، أن الترجمة الحرفية للقرآن اعتمادا على المرادفات اللغوية من دون الاستعانة بالتفاسير المساعدة – يعد عملا ناقصا ولا يؤدي إلى نتيجة[3].

وفي ختام الوثيقة يحاول **نيكيتاس** أن يلبس القصة بعدا غيبيا له دلالاته، فيسرد واقعة تعود إلى الأيام الأولى لتولي **مانويل** عرش الإمبراطورية؛ فيقول: إنّ رجلا صالحا اجتمعت فيه كل الفضائل تنبأ يومها أن **مانويل** سيصاب بالجنون في أخريات أيامه، ويعود **نيكيتاس** ليذكِّر قرّاءه – بعد أن أسْدِل على هذا الجدل– بالقول: لقد تحققت هذه النبوءة، فها هو **مانويل** يجني ثمار ما زرعت

1– انظر: الدراسة المتميزة عن الفهم البيزنطي للقرآن الكريم لـــلبروفسور اليوناني :

Christos Simelidis
" The Byzantine Understanding of the Quranic Term al-Samad and the Greek translation of the Quran " Speculum , A Journal of Medieval Studies , vol.86, No.4 ,(oct.2011)pp887- 912 .
2 -Ibid. , pp.907-908
3 -Ibid. , p. 913

يداه، ثم يتساءل شامتا: وهل ثمة جنون يماثل هذا الجنون حين يزعم أن الإله الحقيقي هو إله **محمّد** الصمد، الذي لم يلد ولم يولد[1].

قائمة المصادر

1- ابن كثير، الحافظ عماد الدين إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، ج4، بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر 1969 م.

2- أبو جعفر جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج2 ، ط2 ، القاهرة، دار المعارف.

3- الزمخشري، أبو القاسم جار الله ، الكشاف ، ج4، طهران، انتشارات أفتاب.

4- Choniates , Niketas , O City Of Byzantium , Translated from Greek by , Harry J. Magoulias , Wayne State University Press 1984

5- El- Cheikh , Nadia Maria , Byzantium Viewed By The Arabs, Harvard University Press , 2004

6- Gregory E. Timothy , A history Of Byzantium , Blackwell Publishing 2005

7- Kaegi , Walter E. , Heraclius Emperor Of Byzantium , Cambridge University Press 2002.

8- Meyendorff , John , Byzantine Views of Islam , Dumbaton Oaks 1963

9- Rhodos D. Bryan , John Damascene in Context , Virginia 2009

10- Reinink , Gerret J. The Reign of Heraclius , Peeter Leuven 2002

11- Sahas , Daniel J. , John Of Damascus on Islam , Brill,1972

12- SpeculumA Journal of Medieval Studies,vol.86.No.4(oct.2011)

1 - Niketas , O City of …. P. 124